الأسطورة الشعبية في ثقافة أهل الصحراء .. المفهوم والأثر

The popular legend in the culture of the people of the desert. Concept and impact

أ.د/ مسفر بن علي القحطاني
الأستاذ بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران – السعودية
Prof. Mesfer Ali Al-Qahtani
Professor at King Fahd University of Petroleum and Minerals in Dhahran – Saudi Arabia
mesfer@kfupm.edu.sa

ملخص البحث:
حفرت الأساطير الشعبية في وجدان أهل الصحراء قصصا لا تنسى، ونفخت في عدد من الأمكنة روحا متأججة ما كانت لتنطفئ لولا جذوة تلك الأساطير، وتسللت بشخوصها المخيفة والغريبة وحكاياتها العجيبة كل بيت وخيمة، وصنعت مع الزمن ثقافة وهوية متجذرة توارثتها الأجيال لعقود، ولا أظن مجلسا في القديم إلا وهو وقد حافظ على تلك الأساطير وحاول غرسها من جديد في الذاكرة الشعبية.
والسؤال الكبير في هذا البحث؛ هل لا تزال تلك الأساطير حاضرة في ذاكرة ووجدان جيل اليوم من أهل الصحراء؟.
حول هذا الموضوع سأتناول مفهوم الأسطورة الشعبية في المجتمع الصحراوي، ووظيفتها، وعلاقتها بالدين، وانعكاساتها الحاضرة والمستقبلية على ثقافتهم المحلية، لذلك سأحاول الجمع بين التنظير الفكري للأسطورة وإسقاطاتها على واقعهم، خصوصا منطقة الخليج الجزيرة العربية.

الكلمات المفتاحية:
الاسطورة – علم الأساطير - الرمز - الصحراء - الدين.

Research Summary:
Popular legends etched in the conscience of the people of the desert unforgettable stories, and breathed in a number of places a burning spirit that would not have been extinguished without the flame of those legends, and crept with their frightening and strange characters and strange tales every house and tent, and made with time a culture and identity rooted inherited generations for decades, and I do not think a council in the old only has preserved those legends and tried to instill them again in the popular memory.
The big question in this research is: Are these legends still present in the memory and conscience of today's generation of desert people?
On this topic, I will address the concept of popular myth in Sahrawi society, its function, its relationship to religion, and its present and future repercussions on their local culture, so I will try to combine the intellectual theorizing of the myth with its Arabian Peninsula.

Keywords :
Myth - mythology - symbol - desert - religion.

مقدمة:

حفرت الأساطير الشعبية في وجدان العرب قصصا لا تنسى، ونفخت في عدد من الأمكنة روحا متأججة ما كانت لتنطفئ لولا جذوة تلك الأساطير، وتسللت بشخوصها المخيفة والغريبة وحكاياتها العجيبة كل بيت عربي، وصنعت مع الزمن ثقافة وهوية متجذرة توارثتها الأجيال لعقود، ولا أظن مجلسا في القديم إلا وهو وقد حافظ على تلك الأساطير وحاول غرسها من جديد في الذاكرة الشعبية.

وسؤال البحث في هذا المقام؛ هو: هل لا تزال تلك الأساطير الصحراوية حاضرة في ذاكرة ووجدان جيل اليوم؟ وما هو أثرها على واقعنا لو وجدت؟.

ولذلك وضعت هدفين رئيسيين للبحث:

1- تحديد مفهوم الأسطورة ومدى التداخل بينها وبين الخرافة والحكايا الشعبية.

2- توضيح الأثر المجتمعي من تناول تلك الأساطير الشعبية على مجتمع الجزيرة العربية.

اما عن أهمية البحث في الأوساط العلمية والاجتماعية:

- فالبحث قد يكون مصدرا للباحثين في التعرف على الاسطورة ونماذج منها؛ لكي تكون مصدر للثراء والابداع الأدبي والفني ومعرفة التاريخ والذاكرة الاجتماعية لشعب ما.

- ويمكن أيضا أن تكون الأسطورة مصدرا للإلهام في البحث والابتكار، وقد تفيد الدارسين في المجالات الاجتماعية حول تاريخ بعض المظاهر والعادات وغير ذلك.

لذلك سأتناول مفهوم الأسطورة الشعبية في مجتمعنا العربي خصوصا السعودي، ووظيفتها، وعلاقتها بالدين، وانعكاساتها الحاضرة والمستقبلية على ثقافتنا العربية والسعودية، كما سأحاول الجمع بين التنظير الفكري للأسطورة وإسقاطاتها على واقعنا العربي في ثلاثة مباحث:

الأول: مفهوم الأسطورة الشعبية عند العرب.

الثاني: الأساطير الصحراوية وسحرها الواقعي.

الثالث: أثر الأسطورة على حياتنا المعاصرة.

ومن أهم الدراسات السابقة في هذا الموضوع:

- كتاب الدكتور خزعل الماجد، الأسطورة . مدخل لفهمها ودراستها، نشر معهد الشارقة للتراث، طبعة ٢٠٢٢.(وله أكثر من كتاب في الأساطير).

- كتاب الأستاذة مرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، ترجمة: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، طبعة ١٩٩١.

- كتاب الدكتور سعد الصويان، الصحراء العربية. ثقافتها وشعرها عبر العصور. قراءة انثروبولوجيه، نشر الشبكة العربية ، الطبعة الأولى ٢٠١٠.

- كتاب الأستاذ وليد فكري، أساطير مقدسة. أساطير الأولين في تراث المسلمين، دار الرواق للنشر والتوزيع، ٢٠١٨.

- وغيرها من الدراسات العربية والغربية التي تناولت الأساطير من الناحية التراثية والتاريخية في عدد كبير من الكتب والأبحاث، ولكن هدف هذا البحث ومكمن استقلاله هو في تناول المفهوم والأثر للأسطورة الشعبية، العائد على أبناء الصحراء خصوصا في الجزيرة العربية.

وسأسير في هذا البحث على منهج الاستقراء لما هو موجود من معنى للأسطورة، ثم أسير على منهج الاستدلال (المنهج الاستنباطي) في تطبيق معانيها على حياتنا الواقعية.

حدود البحث هو في مجال علم تاريخ الأسطورة الشعبية وأثرها الاجتماعي من خلال الاجتماع الديني، وجغرافيًا في حدود منطقة الجزيرة العربية. والله الموفق

المبحث الأول: مفهوم الأسطورة الشعبية عند العرب.

هناك ضرورة معرفية في بسط البحث حول مفهوم الأسطورة، لأن المعنى قد يتردد في مجالات متعددة تزيد مت تشعب المعنى المقصود في هذا البحث، ومن ثمّ سأتناول مفهوم الأسطورة وفق المسائل التالية:

أولا: هناك اختلاف حول معنى الأسطورة، ففي المعاجم العربية؛ الأسطورة هي من السَّطْرُ والسَّطَرُ: الصَّفُّ مِنَ الْكِتَابِ وَالشَّجَرِ وَالنَّخْلِ وَنَحْوِهَا؛ والجمعُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ أَسْطُرٌ وأَسْطارٌ وأَساطِيرُ؛ وسَطَرَ يَسْطُرُ إِذا كَتَبَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ" (القلم، ١)، والأَساطِيرُ: الأَباطِيلُ. والأَساطِيرُ: أَحاديثُ لَا نِظَامَ لَهَا. (انظر: لسان العرب لابن منظور، طبعة دار صادر ١٤١٤ه ٣٦٣/٤).

ويذهب الدكتور خزعل الماجدي إلى رأي مختلف، وهو أن الأسطورة في لغة العرب انحدر من الإلة عشتار البابلي، فتحور اللفظ في اللغات السامية إلى أستار وإسطار وصار في العربية أسطورة أي حكايات عشتار، ومنه ظهرت كلمة (star) أي النجمة باللاتينية وهي نجمة الزهرة أي نجمة عشتار، ومنها جاءت كلمة (story) أي القصة والمقصود حكاية عشتار.(انظر: كتابه الأسطورة . مدخل لفهمها ودراستها، نشر معهد الشارقة للتراث، طبعة ٢٠٢٢، ص ٢٢).

واعتقد أن المعاجم القديمة للغة العربية لم تذكر هذه العلاقة بين مصدر الكلمة والإله عشتار، والاستعمال في القرآن الكريم يؤكد المعنى اللغوي، وكذلك معجم لالاند لم يذكر هذه العلاقة، فالأسطورة (mythe) هي المستعملة في الإنجليزية والفرنسية، وأصلها يوناني (muthos) أي القصة والحكاية والشعبية، وغالب المعاني في معجم لالاند تذكر أنها حكاية خرافية، شعبية الأصل، تتمثّل فيها قوى الطبيعة على صور كائنات شخصية، ويكون لأفعالها أو مغامراتها معنى رمزي. (انظر: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد، طبعة ٢٠١٢، ٨٥٠/٢).

فالاتفاق على معنى محدد للأسطورة يتوافق عليه أصحاب المعارف؛ يعدّ أمرا مستحيلا، ولعلي في هذا السياق أن ألجأ إلى ما قرره علماء الاجتماع في تعريف الأسطورة لشموله وقربه من سياقنا في هذا المقام، فقالوا:" هي تفسير أو قصة رمزية تروي حادثة غريبة، أو خارقة للطبيعة، توجد في ثقافة فرعية، وتتميز بتناقلها وانتشارها على نطاق واسع، وتأثيرها العميق نتيجة ما تنطوي عليه من حكمة، وفلسفة وإثارة وإلهام" (قاموس علم الاجتماع، محمد عاطف غيث، دار المعارف الجامعية، ص٢٩٦)، وهذا هو الأقرب لسياق المعنى في هذا المقال.

ولا يفوتنا وجود الحاجة للتفريق والتوضيح لعدد من المصطلحات القريبة من الأسطورة؛ مثل الخرافة، والحكاية الشعبية، وتظهر أهم خصيصة للتفريق بينهما وبين الأسطورة؛ هو تعلق الأخيرة بأمر مقدس يظهر في طقوس متوارثة تشكل معتقدات المؤمنين بها، مثل زيوس وأثينا وهرقل عند الأغريق، وقصص الآلهة أودين وثور ولوكي عند الإسكندنافيتين، ومثلها عند الفراعنة كأساطير رع وإيزيس وأوزوريس، وغيرها كثير، بخلاف الخرافة والحكاية الشعبية، التي تأتي في سياق أدبي ثقافي منفك عن الاعتبارات المقدسة مثل قصص كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة والأميرات والأقزام وقصص العفاريت والجن.

أما مصطلح الميثولوجيا فهو يشير إلى علم منهجي يهتم بموضوعين، هما: دراسة الأسطورة ذاتها بطريقة علمية منظمة، ودراسة مجموع الأساطير التي تميز حضارة ما كالميثولوجيا المصرية أو اليونانية أو البابلية.

فالأسطورة "تروي تاريخا مقدّسا، وتحكي حدثا جرى في الزمن الأول، الزمن الخيالي، زمن "البدايات". وبعبارة أخرى تحكي لنا الأسطورة كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود، بفضل مآثر اجترحتها الكائنات العليا، لا فرق بين أن تكون هذه

الحقيقة كلّيّة كالكون مثلا، أو جزئيّة كأن تكون جزيرة أو نوعا من نبات أو مسلكا يسلكه الإنسان أو مؤسّسة. إذن هي دائما سرد لحكاية "خلق".. وباختصار تصف الأساطير مختلف أوجه تفجّر المقدس (الخارق) في العالم" (انظر: مظاهر الأسطورة، مرسيا إلياد، ترجمة: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، طبعة ١٩٩١، ص١٠) ، وهذا ما جعل الأسطورة تتلاشى كليا بعد ظهور رسالة الإسلام عند المؤمنين بها، لأن أجوبة الكون والوجود وتدابير الحياة قد استقرت بوضوح عقلي وصدق اعتقادي.

ثانيا: تناول القرآن الكريم ذكر الأساطير في تسعة مواضع، وكلها في وصف الأولين، وكان الغرض لهذا الإيراد؛ أن كفار قريش كانوا يتهمون الوحي بأنه من أساطير الأولين، بمعنى أنها ذات القصص التي يرويها أهل الكتاب حول نزول آدم وقصة الطوفان وأصحاب الكهف وغيرها، وقد ردّ القرآن ذلك بعدة صور منها، أن من يزعم بأن القرآن أساطير الأولين، وهو جاد في تهمته، وعنده من العلم ما يمكنه من المطابقة بين الأمرين، فليثبت أن القرآن مأخوذ من هذه الأساطير؛ وليُقلْ له: القرآن قد تحداك، وتحدى البشر جميعا أن تأتوا بشيء من مثله؛ فهلّا أخذتم من أساطير الأولين كما أخذوا، وأتيتم بقرآن مثله، إن كنتم صادقين ؟! ولا أدل على كذب كفار قريش من قولهم " لو نشاء لقلنا مثل هذا " فما الذي أقعدهم عن الإتيان بسورة من مثل سور القرآن، كما تحداهم الله بقوله: "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ" (سورة البقرة،٢٣).(انظر: مدخل إلى القرآن الكريم لد. محمد عبد الله دراز، دار القلم ١٩٨٤، ص ١٣٥)
وتجدر الإشارة أن الأسطورة قد تسللت إلى حصون المسلمين من نوافذ وعاظ الطوائف وجهلة الصوفية، فالمبالغات في خوارق الأولياء للعقل والطبيعة، كالقدرة على المشي على الماء، وكلام البهائم، وطي الأرض، وظهور الشيء في غير موضعه، والمشي على السحاب، وتحويل التراب إلى خبز، وإبراء الأكمه والأبرص؛ بل وإحياء الموتى، جاءت في لحظة جهل وغفلة عن العلم الصحيح، وتقاعس من العلماء الراسخين.
وهذه الأساطير الخرافية التي كان السدنة يغروا بها الجهلة، لم تذهب بعيدا عن واقعنا السعودي، فلم نسلم من تلبّس بعض الجهلة بثوب الدين لمعالجة السحر والأمراض بطرق مخالفة للشريعة وصحة الإنسان، وتحويل الرؤى والأحلام إلى سوق شعبوي يهدم بيوت وعلاقات زوجية وفق تفسيرات كاذبة يقوم بها شيوخ مخادعون، واليوم ظهرت موضة الطب الروحاني التأملي كسوق جديد للخرافات الحداثية، لهذا يقول ماكس مولر -وهو من المشتغلين بالأساطير- يقول عن الأسطورة:" هي تصوير فترة من الجنون كان على العقل البشري أن يجتازها" (الأساطير، أحمد كمال زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٧، ص٤١). وفعلا بعضها أقرب إلى الجنون والحماقة ولكن بثياب من الوقار والهيبة.

المبحث الثاني: الأساطير الصحراوية في الجزيرة العربية وسحرها الواقعي.

تعدّ دراسة الأساطير العربية في العصر الجاهلي بجزيرة العرب على درجة عالية من الصعوبة، ويعود ذلك إلى سبب رئيس وهو عد توثيق تلك الأساطير وكتابتها، فمعظم الكتابات المأثورة عن العرب في العصور القديمة كانت ما بي ٥٠٠ و٦٢٠ من الميلاد، أي قبل البعثة النبوية بمائة عام تقريبا، وهي قليلة مقارنة بالذي تم توثيقه بالنقوش، والذي اخذ عن طريق المشافهة والرواة، وهناك أخبار عن وصول الأساطير البابلية إلى العرب عن طريق اكتشاف الألواح السبعة، ونقوش الساميين العرب شمال جزيرة العرب.
فالعرب حافظوا على تراثهم وأدبهم ومن ضمن ذلك أساطيرهم من خلال الرواة الذين يحفظون القصص والأشعار والآداب، ثم يروونها في المجالس والمناسبات والأسواق، ثم يتم انتقال تلك المرويات بواسطة رواة آخرين متنقلين في أنحاء الجزيرة العربية، ومن ثمّ تعمّ الرواية وتتوسع أحداثها وأخبارها مع امتداد الروايات وكثرة الرواة.

وفي العصر الإسلامي بدأت الكتابة تنتشر والمصنفات الأدبية تعمّ الحواضر العربية في الجزيرة وخارجها، وظهر عدد من الأدباء والمؤرخين حافظوا على نقل أساطير الجاهلية، مثل كتابات ابن إسحاق في السيرة، وأخبار عبيد بن شرية، والإكليل، وحياة الحيوان للدميري، و تعمق الاهتمام بتلك الروايات في كتب متأخري الأدباء الذين جاءوا بعد القرن الثاني، حيث ظهر الاهتمام الكبير بأخبار العرب وأساطيرهم، وأشهر تلك المؤلفات، ما كتبه أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني، والمسعودي في مروج الذهب، والتوحيدي والقزويني، والثعالبي، وابن قتيبة الدينوري، ثم كتابات ابن عبد ربه الأندلسي وغيرهم كثير.

وقد تمثلت الأسطورة عند عرب الجاهلية في علاقتهم بالكائنات، وآراءهم في الحياة، ومشاهداتهم، وكانت مصدر أفكارهم، ألهمتهم الشعر والأدب، وأسهمت معتقداتهم وبحثهم عن أسئلة الخلق والوجود وما بعد الموت إلى تصورات عقدية متعددة، تحاول الإجابة عن تلك الاحتياجات الروحية، فظهرت أساطير النجوم والسحرة وعبادة الأصنام والأحجار والأشجار والكواكب.

وحسب آراء بعض علماء الأنساب والتاريخ فإن العرب يشتركون مع الفينيقيين والآشوريين والبابليين في أصولهم لأنهم يتشابهون في أجسادهم وعاداتهم، ثم افترق العرب عنهم وصار لهم مميزات خاصة بسبب بيئة البادية. فالعرب هم بقايا الشعوب السالفة المبعثرة، وحسب رأي الباحث رابرتسن سميث "إن الأمم التي تشعبت من أصل واحد قد تشترك في اتخاذ العقائد والشعائر الوراثية دينية أو غير دينية." (انظر: مقالة: الأسطورة في العصر الجاهلي، للباحثة ندى الدانا، نشرت في نوفمبر ٢٠٠٤م، دار ناشري،(https://nashiri.info/articles/literature-and-art/1770-o---v15-1770.html)

كذلك لا ينبغي أن نهمل سببا رئيسيا انثروبولوجيا في تعاطي العربي في الجاهلية مع الأساطير، وهذا السبب يعود إلى طبيعة البيئة الصحراوية في الحجاز ونجد، وكيف أثرت على طبيعة العربي ذاته، فالأشجار نادرة، والآبار والعيون والأنهار شحيحة، مما جعل العربي الجاهلي يصبح اتكاليا، يعتمد على القضاء والقدر، وينتظر المطر، ولا يميل إلى الأمور المعقدة، ويحب تبسيط العلاقات الكونية والظواهر الطبيعية، كما أنه صافي الذهن، يحب الكلمة الصريحة، والبيان الواضح، وقد وصف العربي القديم مشاهداته بدقة، ومالت غرائزه إلى المادة أكثر من المعاني والروح، وعُرف العرب بالعرافة التي تمثل طورا من تطور أوهام العرب، بدأً من الطيرة والتفاؤل والتشاؤم، وصولا إلى عبادة وتقديس الأوثان، وصار العربي يستقسم بالأزلام عندما يقرر أمرا أو يريد سفرا، والعرافة عند العرب نظرية مادية بحتة مبنية على الاستنباط من المحسوسات والعلامات، وعرف العرب أيضا بقوة الفراسة والقيافة ومعرفة الأثر.

أما أبرز تجليات حضور الأسطورة في حياة العرب بالجاهلية، فظهرت في آرائهم حول الدهر ودوره في الحياة والموت، وأمور القضاء والقدر، وتطورت هذه العقيدة حتى خضعوا لسلطان "مناة" وهو صنم العرب الأشهر الذي تعبده الأوس والخزرج وغيرهم، وصنم "عوض" وهذا الصنم تعظمه بكر بن وائل في الجاهلية، وهي أصنام تعني الدهر أو الزمن، فصار الدهر إلها من آلهة العرب، وكانت غايتهم البحث عن الخلود.

وفي الأساطير العربية أن الملك ذو القرنين طمح إلى الخلود، ووصل مع الخضر إلى عين الدهر، يشرب منها الماء الذي يعطيه حياة أبدية، لكنه منع بلوغ هذا المورد، وطمح لقمان الحكيم بن عاد إلى الخلود، وارتبط خلوده ببقاء سبعة نسور على قيد الحياة آخر نسر اسمه "لبد" ويعني الدهر، لكن النسور ماتت واحدا تلو الآخر حتى جاء دور "لبد" الذي مات وانتهت حياة لقمان الحكيم بموته.

كما أن الجاهليين كانت لديهم قدرة تخيلية عالية تستطيع توليد الأسطورة والخرافة بشكل تصوري، فقد تصوروا الأشياء، واسترجعوا أيامهم وحروبهم وركبوا عليها صورهم الشعرية المادية المحسوسة، فأفكارهم عن الأشياء الروحية تأخذ

تصورا ماديا، فقد تصوروا الروح في شكل الهامة، والعمر الطويل في شكل النسر، والشجاعة في شكل الأسد، والأمانة في الكلب، والصبر في الحمار، والمكر والدهاء في الثعلب.

كما عرفت بعض مظاهر "الطوطمية" عند الجاهليين، وهي ديانة مركبة من الأفكار والرموز والطقوس تعتمد على العلاقة بين جماعة من الناس وموضوع طبيعي يسمى "الطوطم"، يمكن أن يكون طائراً أو حيواناً أو نباتاً أو ظاهرةً طبيعية أو مظهراً طبيعياً مع اعتقاد الجماعة بالارتباط به روحياً. (انظر: الموسوعة العربية، إعداد وزارة الثقافة السورية، دار الفكر، ٦٤٦/١٢). لذلك تسمت عدد من القبائل بأسماء الحيوان، مثل بني كلب، وبني نعامة، وظنوا أن الحيوان يحميهم كما يحمي الطوطم أهله، وكانوا يكفنون الحيوان ويدفنونه مثل الإنسان، ويحزنون عليه، وتفاءلوا بالطير، ونباح الكلاب على مجيء الضيوف، وتشاءموا من الثور مكسور القرن، والغراب، فقيل: "أشأم من غراب البين"، وعبدوا الشاة، وغيرها من الحيوانات، ولم يكن هناك حيوان مخصص لقبيلة بعينها. وتظهر الفكرة الطوطمية في تصور العفاريت والجان، حيث اعتقدوا أنهم خلقوا من بيضة، وأنهم ولدوا من حيوان، وكذلك الغيلان والسعالى والهوام، وتطورت فكرة الجن بحيث إذا تحولت السعلاة إلى صورة امرأة تبقى رجلاها مثل رجلي حمار أو عنزة. ونسبوا الأفراد والقبائل إلى نسل الجن، وقيل إن بلقيس ملكة سبأ وذي القرنين من أولاد الجن، وكان الجن يمثلون قوة الشر التي يقاومها شجعان القبيلة، المعروفون في التاريخ بالصعاليك، مثل تأبط شرا، والسليك بن السلكة، وغيرهم. وأساطير الجن عند العرب احتلت مساحة كبيرة في موروثاتهم الشعبية والشعرية. (انظر: الأمثال الشعبية والعصر الجاهلي، الدكتور محمد توفيق أبو علي، دار النفائس الطبعة الأولى ١٩٨٨، ص ٢٦٧).

وقد اشتهرت في الجزيرة العربية عدد من أماكن الجن؛ كوادي عبقر، وأوبار التي أشتهرت أنها موقع قوم عاد الذي عذبوا بالريح، ثم سكنت الجن في بلادهم حسب الأسطورة، ونقله بعض البلدانيين. (انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر الطبعة الثانية ١٩٩٥، ٢٧٦/١).

وفي الأساطير العربية هناك مرويات تحكي مسخ الإنسان حجرا أو شجرا أو حيوانا، فقد جاء في عجائب المخلوقات للقزويني أن الصفا والمروة كانتا رجلا وامرأة ثم مسخا صخرتين، وفي حياة الحيوان للدميري ورد أن أساف ونائلة كانا رجلا وامرأة فصارا صنمين، وجاء في أخبار مكة للأزرقي أن بعض العرب لم يأكلوا الضب لأنه كانوا يظنونه شخصا إسرائيليا قد مُسخ، وقال المقريزي في أخبار وادي حضرموت العجيبة إنه كان بوادي حضرموت على مسيرة يومين من نجد قوم يقال لهم "الصيعر" يسكنون القفر في أودية موحشة، ولا تزال هذه القبيلة قائمة ومعروفة، والأسطورة تقول: أن منهم من ينقلب ذئبا ضاريا أيام القحط، وإذا أراد أحدهم أن يخرج إلى هيئة الإنسان تمرغ بالأرض، وإذا به يرجع إنسانا سويا. واختلفوا في رؤيتهم للمسخ، بعضهم زعم أن المسخ لا يتناسل، ولا يبقى، وبعضهم زعم إنه يبقى ويتناسل، حتى جعلوا الضب والأرانب والكلاب والقردة من أولاد تلك الأمم التي مسخت في تلك الصور كما جاء في كتاب الحيوان للجاحظ.

ومن معتقدات الجاهليين أن الجبال تؤثر في الإنسان، فجبل أبي قبيس في مكة يزيل وجع الرأس. واعتبروا شجرة النخيل من أقربائهم، وتصوروا أنها تشبه الإنسان، وكان الجاهلي يجعل شجرة الرتم حارسا على زوجته أثناء غيابه، وقد قدسوا بعض الأشجار وعبدوها، فكانت طوطما أخر في حياتهم، ورأوا روح الشر في بعضها مثل شجرة الحماطة وهي شجرة تشبه شجرة التين، وعبد العرب كل ما يتعلق بالأشجار من أغصان وجذور وقشور، وعبدوا العظم والريش والناب والمخلب والحافر والسن والظفر والحجر، وقدموا لها القرابين، واتخذوها تميمة تحميهم، وكانوا يعلقون على الصبي سن

ثعلب وسـن هرة خوفا من الخطف والنظرة. وعبدوا النار وكانوا يرونها في الأشـجار، وبطون الأحجار، والجبال.(انظر: مقالة الأسطورة في العصر الجاهلي، لندى الدانا، مرجع سابق).

ولما جاء الإسـلام طهّر العرب من هذه الخرافات الأسـطورية من خلال وضـوح الاعتقاد الذي جاء به القرآن وعلّمه النبي صـلى الله وعليه وسلم لأصـحابه، والمعتقد الصـحيح من طبيعته أن يقضـي على أكثر تلك الأسـاطير، لأنها محاولة لخلق تصـور عن الغيب والوجود والقوى الصـانعة في الكون فتختلق لها تلك الأسـاطير، وما بقي من تلك الأسـاطير واسـتمر توارثه عبر الأجيال هي تلك القصـــص الخرافية حول الأماكن ومن عاش فيها من أقوام، وبعض الحيوانات وقدراتها، وتناقل قصص الجن والسعلاة وغيرها.

وهناك نوع من الأساطير له حضوره في جزيرة العرب، وهي تلك الحوادث الواقعة صدقا لبعض الشخصيات أو المعارك أو الأماكن، ثم يتم النسج على منوالها العديد من الأساطير. وأسباب هذا التداخل يمكن إجمالها فيما يلي:

- أن الرواية التاريخية التي قيلت في أمرؤ القيس أو عنتر بن شـداد أو أبو زيد الهلالي في أصـلها صـحيحة، وأخبارها معروفة الوقوع، وأشـعارها مشـتهرة، ولكن في مجتمع أمي يغلب عليه النقل الشـفهي أحيانا تزاد في الرواية عوامل جديدة من الجذب والتأويل والتوظيف تعطيها روح جديدة للمستمعين بعد عصورهم.
- أن مجالس العرب كانت مجالس شـــعر وتاريخ لقصـــص الأولين، وهذا يعني أن الراوية لابد أن يكون على قدر من الإثارة والجذب للحضـور، فيحدث أن تكثر الحكايات الأسـطورية عن أبطال تلك القصـص، فتدخل الأسـطورة في الرواية التاريخية، فالصنعة الأدبية للرواة حتمت عليهم مع الزمن توسيع الرواية نحو الأسطورة.
- كما يلعب الفهم الخاطئ للرواية التاريخية والتفسير الحرفي لها دورا بارزا في التحول من الواقع إلى الأسطورة، مثالها ما حكاه الرواة الشـعبيون عن قصـيدة عامر السـمين المسـماة بالذهبية والتي مدح فيها الشـريف بركات، فظنوا أن مسـمى الذهبية أنها كتبت على لوح من الذهب وأعطيت للشـريف، وعليها نسـجوا أسـطورة أنها العبد الموكل بنقل القصـيدة سـرق اللوح الذهبي وقدم القصـيدة للشـريف على ورق عادي. (انظر: الصـحراء العربية. ثقافتها وشـعرها عبر العصـور. قراءة انثروبولوجيه. للدكتور سعد الصويان، نشر الشبكة العربية ، الطبعة الأولى ٢٠١٠، ص ٢٧٣-٢٨٨).

المبحث الثالث: أثر الأسطورة على حياتنا المعاصرة.

الأساطير الشعبية في صحراء الجزيرة العربية وفي مجتمعنا السعودي حاضرة في مجتمعنا بطريقتين:

الأولى: تلك الأسـاطير القديمة التي تتناقلها الأجيال عبر الأزمان؛ كأسـطورة أبي زيد الهلالي القوي الشـجاع المغامر، فلا يكاد تخلو منطقة في المملكة من رواية أو مكان يقولون فيه: (صفا أبوزيد) أو (أبار أبوزيد) أو (قدور أبوزيد)، أو أحاديثهم عن السـعلاة (السـعليّه أو السـعلوّه) وحمارة القايلة، وأم السـعف والليف، وغيرها، وقد جمع الأديب السـعودي عبدالكريم الجيهمان ١٣٦ أسطورة وحكاية شعبية سعودية في كتابه "أساطير شعبية من قلب جزيرة العرب" ويقع في خمسة أجزاء، هذا النوع من الأســـاطير والحكايات كانت حديث الأوائل في القرى والأرياف وعند البادية، وكانت تُروى لأجل ما تحويه من قيم وأخلاق يراد لها التمكين، أو تُحكى بهدف التسلية والظرافة، واليوم ظهر من يحاول تجسيد تلك الحكايات في رواية أو مسرحية حداثية، أو من خلال تجسيدها في مزار سياحي يوثق عودة الحكاية بشكل عصري ونفعي.

أما الطريقة الثانية في حضـور الأسـطورة السـعودية، فهو ذلك الحضـور الطاغي للتقنيات الأسـطورية، من خلال إدمان الألعاب الالكترونية ومشـاهدة الأفلام الخيالية، وهي ظاهرة عالمية لعودة تجسـيد الاسـاطير بتقنيات رقمية مذهلة، وخيال مفرط في الاستحالة يسمونه بـــ(الخيال العلمي)، وأصبحت أكثر الأفلام انتشارا وإيرادا ماليا هي فانتازيا الأفلام والألعاب،

وشـــبّاك التذاكر اليوم بمدن المملكة لا يزدحم إلا على تلك القوى الأســـطورية لهاري بوتر والرجل العنكبوت والرجل الوطواط وحروب النجوم والمستقبل والذكاء الاصطناعي، وجوائز الأوسكار لهذا النوع من الأفلام شاهد على هذا التأثير العالمي، أما عن أســاطير الألعاب الإلكترونية في الســعودية فهي رائجة بشـكل مذهل وتنمو كأهم القطاعات الاقتصــادية، فالإحصـائيات تشـير أن هناك ٢٣ مليون لاعب في المملكة، بنسـبة ٦٧% من عدد السـكان يمارسـون الألعاب الإلكترونية مقارنة بـــــ٦٦% في الولايات المتحدة، وتبلغ استثمارات الألعاب الإلكترونية بالمملكة ١٦,٨ مليار ريال في عام ٢٠١٨، ومن المتوقع أن تصل إلى ٢٥,٥ مليار ريال بحلول ٢٠٣٠(صحيفة مال عدد ٩ أكتوبر ٢٠٢٣). ويستحيل أن تخطئ العين ذلك الأقبال الكبير في مواقع التواصـل الاجتماعي لأي خرافة حول شـخصـيات المشـاهير، وكيف تنسـج الأسـاطير لزيادة المتابعين والمعلنين وجني الأرباح المليونية، وهنا تُخلق الأسطورة من العدم، وليس من خلال جلبها من القِدم.

وهنا سؤال هام:

لماذا نحتفي بالأسطورة الشعبية ونعود إليها؟ الجواب باختصار:"لأننا كائنات تبحث عن معنى" (انظر: تاريخ الأسطورة، كارين ارمســترونغ، ترجمة وجيه فانصــوه، الدار العربية للعلوم ناشــرون ٢٠٠٨، ص٨)، حاجتنا للمعنى والتفســير لكل التساؤلات التي ترتطم في أعماقنا حول الوجود والمعاد والكون والإنسان لا تنتهي، وقد جاءت الأديان السماوية خصوصا الإســـلام للإجابة عنها بيقين إيماني، ولكن تبقى هناك العديد من التســـاؤلات حول الحكمة من تلك الظواهر، والعلة وراء الكثير من الأحداث، فتسـتجيب النفس للبحث عن تلك الأجوبة ولو من خلال تفسـيرات رمزية لا تمت للعلم والواقع المادي بصلة، لكنها قد تشبع الوجدان بجواب روحي يستمد منه الإنسان حاجاته للشغف ويثير وجدانه للقبول، ونحن في السعودية لا نغرق كثيرا في البحث عن تلك التفسيرات الأسطورية، بسبب القناعات الدينية الراسخة، والوعي العقدي المكتسب من تعليمنا ومنابرنا الإرشـادية، ومع ذلك هناك انجذاب وحنين لعودة تلك القصـص الخرافية ولو لم نصـدقها، نلحظ ذلك عندما يمر الراكب بسياراته بعقلة الصقور في منطقة القصيم ويرى جبل "طميّة" وقصة عشقها المتيم لجبل "قطن" ولشدة عشقها وحبها له أرادت الانقلاع إليه؛ فمنعها جبل عكاش، وضـربها برمحه فاسـتقرت في موضـعها المعروف الأن، ولأجل هذه الحكاية الأسطورية أنَشد الكثير من الشعراء قصائد تمجّد هذه القصة، ومنهم الأمير الشاعر خالد الفيصل في أبياتٍ له:

انتزع قلبي مثل نزعة طميّه..يوم هزّ العشق راسية الجبال

ساقها سوق المبشر للمطيّه..لين عاشت مع قطن حلم الليال

وصـارت اسـطورة هوى بين البريه..وصـار مجراها مثار للخيال. (من مقال لد.تنضـيب الفايدي في صـحيفة الجزيرة ١٢ سـبتمبر ٢٠٢٣)، أو تداعي أسـاطير جبل منعاء لمن يشـاهده مارًا بتنومة، متذكرا حكاية ملك الجن وحراسـته لكنوز الجن وموت كل من يصـعد إليه، وأسـطورة الصـعاليك ومعاركهم مع الغول حاضـرة كلما تذكّر العابر من جنوب المملكة نحو مكة، وسـرح به الخيال مع السـليك بن السـلكة ومواجهاته لفرسـان مذحج وتغلب، وكيف اسـتطاع الفرار بسـرعة تتجاوز سرعة الخيل.

هذه القصص لا تبقى في الذاكرة بدون هبوط اختياري واضطراري من العقل إلى أرض الواقع الحيّ والخيال الخصب في مملكتنا الثرية بالتاريخ والفن والحضارات الغابرة.

هناك أيضا معنى آخر للاحتفاء بالأسطورة، باعتبارها ذاكرة جمعية تتداولها الشفاه عبر الأجيال، ليس لأجل تناقل قصص أسـطورية فحسـب؛ بل لأنها ذاكرة المجتمع وذاكرة رجالها ورواتها، وفيها تظهر ثقافاتهم وقيمهم عبر ذلك التوارث الممتد عبر السنين.(انظر: فكرة الأسطورة وكتابة التاريخ، لفضيلة حسين، طبعة دار اليازوري ٢٠٠٩،ص ٤٣ وما بعدها)

ومن فوائد معرفة الأساطير للباحثين؛ أنها أصبحت علما معروفا يطلق عليه "الميثولوجيا"، وما جاء هذا الاهتمام في عصر العلم والبرهان إلا لوجود فائدة من هذا التتبع مع الجزم بخرافتها وعدم تصـــديقها، ولكنها جزء مهم لفهم التاريخ وتتبع تحولات الإنسان، ومصادر معرفته خلال حياته.

يقول جوزيف كامبل:" كل أنحاء العالم المسكون بالبشر، في كل الأزمان وتحت كل الظروف، قد ازدهرت الأساطير حول الإنسان؛ كانت الإلهام الحي لكل ما تفتقت عنه أنشطة البشر الجسدية والذهنية. وليس من قبيل المبالغة القول إن الأسطورة هي السر الذي أطلق العنان لطاقات كونية لا تنضب صبت في نهر التجليات الثقافية الإنسانية. الأديان والفلسفات والفنون والتشـكيلات الاجتماعية للإنســان البدائي والقديم، والاكتشــافات الأولية في العلوم والتكنولوجيا، وحتى الأحلام أثناء النوم، جميعها تنبثق من حلقة الأسطورة الأساسية والسحرية." (كتاب: البطل بألف وجه، بترجمة حسن صقر، دار الكلمة ودار الشفيق، دمشق ٢٠٠٣.).

وختاما عرض لأهم النتائج:

ليعذرني القارئ في بســـط الحديث حول المفهوم كمعنى وتداخلاته مع الدين، ولكنها مقدمات ضـــرورية لم يحســـم فيها الخلاف، ولم تشــبع بالبحث اللائق بأهميتها، أما واقع الأســطورة في ثقافتنا العربية والســعودية فهو واقع متداخل ذكرت بعضه وصرفت النظر عن الكثير، ولا تزال ثقافة الأسطورة حاضرة في وعينا الجمعي؛ رغم اعتقادنا الجازم بعدم صدقها، ولكن طبيعتها المنسابة في علوم الانسان والأدب والتاريخ تجعل لها هذا الحضور الهام؛ مهما طال الزمان وعَظُم في حقها النكران.

ويمكن ايجاز أهم النتائج لاهتمامنا بالأسطورة من خلال ما يلي:

1- "نحن كائنات تبحث عن معنى" كما قالت :كارين ارمسترونغ، وهذا يعني أننا سنستمر في بحث عن جواب لأي حالة أو ظاهرة في الكون أو الحياة بالعلم أو بالأسطورة.

2- تغلغل الأسطورة في الأدب؛ كان لأجل البحث عن هوية ثقافية ممتدة في تاريخنا البعيد.

3- فهم التاريخ وحوادثه من خلال الأسطورة، والبحث عن امتداد المجتمعات التاريخي، وقد أسهمت الأسطورة في معرفة تواريخ وأحداث خصوصا في الجزيرة العربية.

4- اهتمامنا بالذاكرة الجمعية والثقافة المتوارثة بين الأجيال، وهومن أجل بناء مشتركات بين مكونات المجتمع، وزيادة اللحمة الوطنية، من خلال قوة الأسطورة الجمعية في الذاكرة الشعبية.

5- استعانة العلم بالأساطير؛ لأجل تقوية الخيال العلمي الذي يتحول في الغالب إلى منتجات علمية وتقنية كما في فكرة الصعود إلى القمر، والانسان الآلي، والطيران بين البلدان.

6- إن دراسة مجموعة أساطير مجتمع تكشف عن بنية الفكر اللاواعي في بناء وعي المجتمع. لذا هو بحث عن التحليل النفسي للمجتمع، كما يقول كلود ليفي شتراوس.

والله تعالى أعلم وأحكم.

أهم مراجع البحث:

- أساطير مقدسة. أساطير الأولين في تراث المسلمين، د. وليد فكري، دار الرواق للنشر والتوزيع، ٢٠١٨.
- al'asatir almuqadasatu. 'asatir al'aqdamin fi alturath al'iislamii, da. walid fikri, dar alruwaq lilnashr waltawzie, 2018.

- الأساطير، أحمد كمال زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٧.
- al'asatiru, 'ahmad kamal zaki, alhayyat almisriat aleamat lilkitabi, 1997.
- الأسطورة في العصر الجاهلي، للباحثة ندى الدانا، نشرت في نوفمبر ٢٠٠٤م، دار ناشري.
- al'usturat fi aleasr aljahilii, lilbahithat nadaa aldina, sadar fi nufimbir 2004, dar alnaashiri.
- الأسطورة. مدخل لفهمها ودراستها، للدكتور حزعل الماجدي، نشر معهد الشارقة للتراث، طبعة ٢٠٢٢.
- al'usturatu. madkhal 'iilaa fahmiha wadirastiha, da. hudhal almajidi, sadir ean maehad alshaariqat liltarathu, tabeatan 2022.
- الأمثال الشعبية والعصر الجاهلي، الدكتور محمد توفيق أبو علي، دار النفائس الطبعة الأولى ١٩٨٨م.
- al'amthal alshaebiat waleasr aljahili, du. muhamad tawfiq 'abu eulay, dar alnafayisi, altabeat al'uwlaa 1988.
- البطل بألف وجه، بترجمة حسن صقر، دار الكلمة ودار الشفيق، دمشق ٢٠٠٣.
- albatal dhu al'alif wajih, tarjamat hasan saqra, dar alkalimat wadar alshafiq, dimashq 2003.
- الصحراء العربية. ثقافتها وشعرها عبر العصور. قراءة انثروبولوجيه، للدكتور سعد الصويان، نشر الشبكة العربية ، الطبعة الأولى ٢٠١٠.
- alsahra' alearabiatu. thaqafatuha washaeruha eabr aleusuri. - qira'at 'anthurubulujiatun, lilduktur saed alsuwyan, nashr alshabakat alearabiati, altabeat al'uwlaa 2010.
- فكرة الأسطورة وكتابة التاريخ، لفضيلة حسين، طبعة دار اليازوري ٢٠٠٩.
- fikrat al'usturat wakitabat altaarikhi, lifadilat husayn, nashr dar alyazuri 2009.
- قاموس علم الاجتماع، محمد عاطف غيث، دار المعارف الجامعية، ٢٠٠٠م.
- muejam ealam alaijtimae, muhamad eatif ghith, dar almaearif aljamieiati, 2000.
- لسان العرب، لجمال الدين ابن منظور، طبعة دار صادر ١٤١٤ه.
- lisan alearab, lijamal aldiyn aibn manzurin, nashr dar sadir 141 4 hu.
- مدخل إلى القرآن الكريم لد. محمد عبد الله دراز، دار القلم، دمشق، ١٩٨٤.
muqadimat fi alquran alkarim lilduktur muhamad eabd allah diraza, dar alqalami, dimashqa, 1984.
- مظاهر الأسطورة، مرسيا إلياد، ترجمة: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، طبعة ١٩٩١.
- tajaliyat al'usturati, mirsia 'iilyad, tarjamata: nihad khayaat, dar kanean lildirasat walnashri, tabeat 1991.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر الطبعة الثانية ١٩٩٥.
- muejam albildan, yaqut alhamawi, dar sadir, altabeat althaaniat 1995.
- موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد، طبعة ٢٠١٢م.
- mawsueat laland alfalsafiati, tarjamat khalil 'ahmadu, tabeat 2012.